

الخطاب القومى فى شعر لقيط بن يعمر الإيادى

إعداد

د/ محمد عبدالدايم الباجورى

مركز اللغات والترجمة

أكاديمية الفنون . القاهرة

القبيلة هي النواة الأولى للنظام الاجتماعي والسياسي في البيئة العربية خاصة في الفترة التي سبقت الإسلام، وكان بجانب هذا النظام نظم أخرى أكثر استقراراً ممثلة في إمارة اليمن والحيرة والغساسنة وغيرها من الإمارات التي قامت على نظام أشبه بنظم الدول في عصرنا الحديث، وكان كل فرد في القبيلة يخضع لنظمها وتقاليدها ويدين لها بالولاء والطاعة في ظل علاقة ممثلة في القرابة والنسب والمصالح المتبادلة.

وانتماء العربي لقبيلته هو في ذاته "ارتباط مادي ومعنوي، يشبه إلى حد بعيد النزعة الوطنية الحديثة التي تضع على كاهل المواطن واجبات محددة عليه أن يؤديها عن قناعة وإيمان، مثل العمل من أجل الوطن، وحمانيته، والدفاع عنه، كما تمنحه حقوقاً محددة، تتمثل في تأمين سبل ممارسته لمهامه الإنسانية من خلال منظومة الحياة الاجتماعية"^(١).

وارتباط العربي لقبيلته أمرٌ حتمي فهو يندمج فيها، ويفتخر دائماً بأمجادها، ويدافع عنها وعن سيادتها، كذلك تدافع القبيلة عن أبنائها وتهب لنجدتهم، وتدرا عنهم أي عدوان، ومن هنا حذر أوس بن حجر من الخروج على القبيلة في قوله:

فقومك لا تجهل عليهم، ولا تكن لهم هرشاً تغتابهم وتقاتل
وما ينهض البازي بغير جناحه ولا يحمل الواشين إلا الحوامل
ولا سابق إلا بساق سليمة ولا باطش ما لم تعنه الأنامل^(٢)

وفيتخر عمرو بن قمينه بقومه حين يصورهم بأنهم كالأظافر التي تنهش الأعداء، بل هم الحصن الحصين المدافع عنه فيقول:

على أن قومي أسلموني وعُرّتي وقومُ الفتى أظفاره ودعائمُه^(٣)

والقبيلة عند العربي مرفأً آمن يلوذ إليه ويحتمي به "لقد رأى العربي في النسب إلى القبيلة، مانراه - نحن اليوم في الوطن فكل قبيلة تؤمن بنسبها، وبأنها تعود إلى أصل واحد من دم واحد، ومن أجل ذلك عبروا عن القرابة باللحمة، كما عبروا عن فروعهم بالبطن والفخذ"^(٤).

وانتماء العربي لقبيلته يبدأ أول ما يبدأ داخل الأسرة، وينمو مع العربي منذ صغره، حتى إذا غدا شاباً تلمس الدفاع عنها حتى يعد من أبطالها وسادتها الذين يفخرون بها، فهي هو طرفة بن العبد يقول:

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ولست بحلال التلاع مخافة ولكن متى يسترقد القوم أرفد^(٥)

(١) الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحنس القومي. د/ مصعب حسون، بغداد سنة ١٩٨٩م ص ١١.

(٢) ديوان أوس بن حجر، تحقيق د/ محمد يوسف نجم، الطبعة الثالثة، بيروت، سنة ١٩٧٩م ص ١٩٩.

(٣) ديوان عمرو بن قمينه، تحقيق: حسن كامل الصيرفي. طبع معهد المخطوطات العربية القاهرة سنة ١٩٦٥م ص ٤٩.

(٤) قضايا الشعر الجاهلي - مدخل لدراسة آداب الجاهليين. د/ جودة أمين ط - الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ص ٣٨.

ويقول دريد بن الصمة مفتخرًا بقومه في رثاء أخيه عبد الله :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد فالببيت السابق يدل على خضوع الشاعر التام لتعاليم القبيلة وأوامر قائدها أو سيدها حتى لو اختلفوا في الرأي، وكان رأيُه صائبًا، فإنه ينصاع لرأي القائد حتى ولو كان على غير الصواب " والشاعر بموقفه هذا إنما يعبر عن انتمائه الطبيعي لمجتمعه القبلي، وفي إطار الالتزام الموضوعي الذي ساد الحياة العربية آنذاك لأن المعنى الحق لشاعر القبيلة هو أن يكون الناطق باسمها، والمدافع عنها، والناصح لها والموجه لأبنائها، والمؤرخ لمواقفها، والمتغني بانتصاراتها، والمعلل لهزائمها، والممثل لشؤونها عند الملوك، وفي المواسم والأسواق." (٦) ورغم أن شيخ القبيلة كان له كلمته المسموعة مع كل أفراد قبيلته فإنه لم يستأثر بالرأي وحده، بل كان له مجلس للمشورة من عقلاء القوم ورؤساء العشائر ووجهاء الفصائل، يستشيرهم فيما يعن له أو يتعرض له " وكان للشيخ شروط عامة تعارف عليها العرب، وبمقتضاها يسود من ائتمنت فيه قومه، وتكون له الكلمة النافذة من هذه الشروط "أن يكون حليماً عاقلاً كريماً، متفانياً في خدمة من يسودهم، شجاعاً في الحرب لكي يتسنى له أن يرد غارات المغيرين، وأن ينتقم من المعتدين" (٧)

ومن مميزات شيخ القبيلة أيضاً: الإخلاص والوفاء، وكثرة المال والولد، كما يقسم الغنائم بعد الفوز في الحرب، ويعقد باسم قبيلته اتفاقات الصلح والمعاهدات، ولولا كل ذلك ما استطاع شيخ القبيلة أن يمثل قبيلته أو يحظى بمكانته اللانقة بينهم، لذا يقول الأفوه الأودي:

والبيت لا يبتني إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا (٨)

ولشخصية رئيس القبيلة أثر في مكانة القبيلة، فالزعيم في المجتمعات القبلية رجال للسياسة " وتحكمهم وكفايتهم تقرر الأمور، ورب كلمة من زعيم أو هفوة تصدر منه تُعير حرباً أو تسبب كارثة له ولقبيلته، أو للحلف الذي يتزعمه، وذلك أن أعصاب رجال البادية مرهفة حساسة تتأثرها الكلمات، ولا سيما إذا كانت تتعلق بالشرف والجاه" (٩).

لذا كان لزاماً على كل فرد داخل القبيلة أن يحترم رأي سيدها ولا يختلف مع غيره من أبناء القبيلة، حتى لا يكون مصدر شقاق وفرقة بين أبنائها، وكان الشعراء من أبناء القبيلة دائماً يدعون إلى الوحدة والاتحاد والإشادة بالقبيلة وأبنائها ويحذرون من الفرقة والاختلاف، ومن أشعر شعراء الجاهلية الذين دعوا إلى الوحدة **لقيط بن يعمر الإيادي**، الذي ترك لنا ديواناً صغيراً لا يحوي غير قصيدة واحدة، وبعض الأبيات المتفرقة وكلها تدعو إلى الصفات التي يجب أن يكون عليها أبناء القبيلة، والتحذير من التفرقة والاختلاف، لأن ذلك سيكون سبباً في ضياعهم، ولعل الذي دفعه إلى ذلك ما رآه من إعداد كسرى لجيش جرار لغزو قومه.

(٦) ديوان طرفة بن العبد البكري، تحقيق د/ علي الجندي - مصر - د. ت. ص ٤٥.

(٧) الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحنس القومي د/ مصعب حنون الراوي ص ١٧.

(٨) بحوث في تاريخ الأدب الجاهلي د/ شعبان مرسى - دار الثقافة العربية، القاهرة سنة ١٩٩١ - ١٩٩٢ ص ١٤.

(٩) ديوان الألوذ الأودي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٤٧ م ص ١٠.

(١٠) تاريخ العرب، جواد علي، المجمع العلمي العراقي، د. ت. ج ٤، ص ٢١٥.

أما الأخبار عن الشاعر فهي قليلة جداً، فكتب الأدب التي عرضت له لم تذكر سوى اسمه، ولم تعرض لحياته ربما لندرة الأخبار عنه لقدمه، فهو لقيط بن يعمر بن خارجة بن عوثبان الإيادي، بهذا انفرد البكري، وقد اختلفت الكتب في إيراد اسم أبيه،

ففي بعضها يعمر، وأخرى: معبداء، وتارة: معمرأ، ولكن الرأي الغالب هو لقيط بن يعمر. (١٠)

ولقيط بن يعمر شاعر جاهلي قديم، يرقى عصره إلى القرن الرابع الميلادي، وسيرته تُعد في عداد المجهول (١١).

وكان كاتب كسرى وترجمانه، سرياً من سادات قومه، اطلع على أسرار دولة الفرس التي عاش في بلاط ملكها. (١٢)

ويرى البكري أن لقيطاً كان مقروفاً بامرأة كسرى، وهو خبر يلقي الضوء على تلك الأخبار التي ألمعت إلى حبسه في سجن كسرى، فأطلقه وأمره بالكتابة إلى قومه ليجمعوا فيغير عليهم فيقتلهم. (١٣)

ويذكر أبو هلال العسكري رأياً مختلفاً فيذكر أنه "كان رهينة عنده عن إياد لنلا يعيشوا" (١٤)، ولعل هذا الرأي هو الأرجح، يؤكد ذلك ما يقوله الدكتور علي الجندي نقلاً عن ابن قتيبة: "وكانت إياد أكثر نزار عدداً، وأحسنهم وجوهاً، وأمدهم وأرشدتهم وأمنعهم، وكانوا لقاحاً لا يؤدون خرجاً، واللقاح يفتح اللام يقال: قوم لقاح وهي لقاح: لم يدينوا للملوك ولم يصبهم في الجاهلية سباء، وهم أول معدي خرج من تهامة فنزلوا السواد، وغلبوا على ما بين البحرين إلى سنداد والخورنق، وسنداد نهر كان بين الحيرة والإبله، وكانوا أغاروا على أموال لأنوشروان، فأخذوها فجهز إليهم الجيوش، فهزمهم مرة بعد مرة، ثم إن إياداً ارتحلوا حتى نزلوا الجزيرة، فوجه إليهم كسرى بعد ذلك ستين ألفاً في السلاح، فنبههم لقيط الإيادي بقصيدة أرسلها إليهم فاستعدت إياد لمحاربة جنود كسرى، ثم التقوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً أصيب فيه من الفريقين، ورجعت الخيل ثم اختلفوا بعد ذلك فلحقت فرقة بالشام، وفرقة رجعت إلى السواد، وأقامت فرقة بالجزيرة". (١٤)

والواقع أن لقيطاً أرسل لقبيلته رسالتين:

الأولى: قصيدة لا تتجاوز أربعة أبيات، يخبر فيها قومه باستعداد الفرس لمهاجمتهم بجيش يزيد عدده عن ستين ألفاً، وقد امتلأت قلوبهم حقداً وغيظاً على بني إياد يقول:

سلام في الصحيفة من لقيط إلى من بالجزيرة من إياد

(١) راجع ديوان لقيط بن يعمر الإيادي رواية أبي المنذر هشام بن محمد السائب الكلي - تحقيق وتعليق وتقديم: خليل إبراهيم العطية - وزارة الإعلام - مديرية الثقافة العامة، دار الكتب المصرية ص ٧، ٨، ٩.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، طبع دار الشعب، القاهرة ١٦٧/١.

(٣) راجع: معجم ما استعجم للبكري: ٧٥/١ القاهرة سنة ١٩٤٥، والمؤلف والمختلِف للآمدي، نشر كرنكو: القدس سنة ١٩٥٤ - ٢٦٦.

(٤) معجم ما استعجم ٧٢/١

الأوائل لأبي هلال العسكري، تحقيق د محمد السيد الوكيل، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٧م، دار البشائر للثقافة والعلوم الإسلامية ص ٩٥.

بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلکم سوق النقاد

أتاكم منهم ستون ألفاً يزجون الكتائب كالجراد

على حق أتینکم فهذا أوان هلاکم كهلاك عاد^(١)

ويبدو أن رسالة الشاعر السابقة لم تجد أذاناً مصغية من أبناء قبيلته، لذا أرسل رسالته الثانية؛ وهي قصيدة تحوي أربعة وخمسين بيتاً أسهب فيها الحديث عن جيش كسرى وعدده، وأسدى نصائح كثيرة لقومه.

ولكن كيف استطاع الشاعر أن يصل بخطابه القومي إلى قلوب بني إيلاد؟ وأن يؤثر فيهم كل هذا التأثير؟ وكيف أصبحت هذه القصيدة نموذجاً مثالياً في استنهاض القبائل للدفاع عن أرضها وعرضها.

إن شعر لقيط يعد تجربة رائدة في شعرنا العربي، فهو يعود إلى البدايات الأولى لما أثر من شعر جاهلي في هذا الاتجاه.

والموروث الشعري للقيط يعج بوطنية وانتماء لقبيلته لا يعلوه انتماء، وهذا طبع العربي المحب لأهله وقبيلته، لذا فتجربته تسمو على كل التجارب لأنها بعيدة عن الزيف والنفاق، وقد أتت في صورة خطاب، خطاب قومي يرسم معالم الطريق الصحيح للخلاص من الأعداء.

والخطاب متعلق مفهوم مشروط بطرفين رئيسيين هما: الشاعر، والمستقبل وهم قبيلته أو القاريء عموماً، لأن هذا الخطاب يصلح لأي قوم في أي زمان ومكان.

ويأتي تفرد الشاعر وتميزه في عمله لأنه ينطوي على صدق فني وواقعي ويصور موقفاً فاصلاً في حياة قبيلته، سيمتد أثره إلى العرب جميعاً سلباً وإيجاباً، كما يأتي تميزه لبيانه مواطن الضعف، ورسم الطريق للنهوض والانتصار على العدو، ويُعد ذلك وظيفة من وظائف الشعر فرضتها الظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة بهم آنذاك.

لقد حدد الشاعر خطابه إلى قومه في ثلاث نقاط :

- ١- استعداد العدو للقتال وتجهيزه لجيش كالجراد يأتي على الأخضر واليابس.
- ٢- نهى عن أمور من شأنها أن تؤدي بهم وتجعلهم أحاديث وتمزقهم كل ممزق.
- ٣- أمر بما يجب أن يفعلوه كي تكون لهم الغلبة والنصر.

والمرجع لخطاب الشاعر هو القاريء الممثل في عقلاء بني إيلاد الذين هم عماد المجتمع القبلي، والذين وصلت إليهم رسالة لقيط، وهم بطبيعة الحال ليسوا جامدين أو خشباً مسندة، بل هم في حركة متفاعلة يقرأون ويضعون تساؤلات عديدة عن كل ما يشكل عليهم، وهم في النهاية أما

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي، د/ علي الجندي، مكتبة النصر - القاهرة ص ٤٨.

(٢) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي ص ٢٩.

أن يستجيبوا لهذا الخطاب أو يجعلوه دبر آذانهم، لكن الشاعر يكتب وكان في ظنه أنه سيجد من يسمع وينصت لقوله، ولكي يحقق هذا الإنصات اعتمد على ما يلي:

أ- الإشارة إلى المكان:

وذلك عن طريق المقدمة الطللية التي حرص عليها في بداية خطابه إلى قومه على عادة الشعراء الجاهليين، " والحديث عن الأطلال والارتحال من أشد مثيرات الوجدان، فالمكان يترك أثراً عميقاً في الإنسان، والارتحال يفرق بين قلبين إلى مدى لا يدري كلاهما عقباه.. ولا شك أن التأثير يكون أكثر وأقوى إذا كان للإنسان في هذا المكان ذكريات حلوة جميلة لا أمل في استرجاعها، وبقدر ما فقد المرء من متعة تكون درجة التأثير عمقاً وشدة، وحينئذ لا غرابة أحياناً أن يسيطر الحزن على الإنسان، أو عصرتة اللوعة، أو ملأه الهم والغم" (١٦)

ولقد وضح هذا التأثير الشديد في قول الشاعر:

يا دار عمرة من محتلتها الجرعا	هاجت لي الهم والأحزان والوجعا
تامت فوادي بذات الجزع خربة	مرت تريد بذات العذبة البيعا
جرت لما بيننا جبل الشموس فلا	ياساً مبيناً نرى منها ولا طمعا
فما أزال على شحط يؤرقني	طيف تعمد رحلي حيث ما وضعاً
إني بعيني ما أمت حملهم	بطن السلوطح لا ينظرون من تبعاً
طوراً أراهم وطوراً لا أبينهم	إذا تواضع خدر ساعة لمعا" (١٧)

لقد حرص الشاعر على أن يقف بديار المحبوبة ويذكرها صراحة حتى الأماكن التي سارت فيها، كالجرع أو ذات الجزع و ذات العذبة و البيعا و بطن السلوطح" وكلها بمثابة المثير الذي يلهب مشاعر الشاعر، ويحدث نوعاً من الإثارة للمستمع تجعله ينصت لما يرد بعد ذلك، وكان الشاعر كما يذكر الدكتور السيد فضل " يريد منذ البداية أن يلم شمل بلاده فيما يشبه عقد الملكية تحدد فيه الحدود بذكر المواضع والأماكن على وجه الدقة بحيث ترى كل المواقع في الجزيرة ملكاً ليمينه، والشعراء هم وحدهم القادرون في شعرهم على أن يجعلوا الكل في واحد، والخراب نعيماً مقبلاً، إن الشاعر حين يقف على الديار يقف وقفة مملوءة بالعناصر الإيجابية، تؤكد قدرته على مواجهة قدره، وتجاوز ضعفه" (١٨)

"إن ذكر تلك الأماكن له دلالتان:

- الدلالة الأولى: هي تذكر الحبيبة ومراتع الصبا والشباب وأيام الحب.

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي د/ علي الجندي ص ٣٣٥.

(٢) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي ص ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣.

(٣) الشعر الجاهلي وقضية التفسير د/ السيد فضل - مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٨٩م ص ٣٧.

- الدلالة الثانية: هي الاعتزاز بحمى القبيلة وأرضها، والارتباط بها كارتباط كل مواطن بوطنه يتغنى به، ويذكر اسمه ويستعذبه دائماً على لسانه^(١٩)

ولا يقتصر اهتمام الشاعر بالمكان على حدود القبيلة فقط، بل يمتد إلى أرض العرب كلها، فالمكان يتدرج من الخاص إلى العام ليحدث نوعاً من الشعور القومي في نفوس العرب جميعاً وليس بني إيداء فقط. وذكر المكان أو ديار المحبوبة عموماً يثير الأحران، والشاعر حينما يتحدث عن الهم والحزن والوجع لا يتحدث حديثاً تقليدياً على عادة الشعراء المعاصرين أو من سبقوه - إن كان قد أثر شيء من شعر قبل عصره - وليس كلامه تعبيراً عن الحيرة في الكون ومشاهد الحياة، وإنما هو تعبير عن مشاعر ماثلة في نفسه مبعثها خوفه على قومه بدليل:

١- بدأ بنداء الديار في قوله: " يا دار عمرة " واتخذ من " عمرة " - والتي ربما لا وجود لها - نوعاً من الإبهام، هو لا يقصدها ولكن يقصد أهله وعشيرته الذين يتذكرونهم دائماً، ويطلب تذكرهم لهم وخوفه عليهم الهم والحزن لأنه في بلاط كسرى، وفي مركز اتخاذ القرار، ويعلم ما يدبر وما يحاك لقومه.

٢- اتخذ من المرأة " عمرة " وسيلة للترويح عن نفسه وإزالة الهم، ولذا لم يلجأ

إلى تجريد المطلق أو الإكثار من الخيال لأنه يهدف إلى التعبير عما في نفسه في وضوح وصديق لأن خطابه ما هو إلا أحاسيس تموج بداخله تجاه مجتمعه وقبيلته، فهو لا يريد لهم الذل بل يبغى لهم حياة حرة كريمة " لأن حب الحياة دافع قوي متسلط يحمل الناس - كل الناس - على الصراع من أجل الاستمرار، فإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء، وإذا البشر في هذه الدنيا اثنان: غَازٍ ومَغزُوءٌ أو أنهم غَازُونَ تارة ... ومَغزُوُونَ تارة، وإذا هم في الحالين جماعات جلد وحروب ينتصب فيما بينهم مَنْ يَبُوقُ لذلك القتال، ويبث الحماسة في صدور الرجال.."^(٢٠)

٣- لجأ إلى الإيجاز الشديد في مقدمته الطللية فهو لم يقف أمام الناقاة أو يسهب الحديث عنها لأنه يريد أن يبرر ما هو أهم وهو التحذير من الأعداء؛ وذكر المكان في مستهل خطاب الشاعر والحديث عن ألم الفراق أمر متعمد من الشاعر " ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه"^(٢١).

ب- تهويل الموقف وبيان قوة العدو:

ومن طرق ترسيخ الإطار القومي وتحقيق الإنصات في خطاب لقيط تهويل الموقف وبيان قوة العدو، ليحدث نوعاً من الشعور بالانتماء إلى القبيلة في نفوس سامعيه، فقد حاصر المستمع بالمشاهد الحية التي تبين هول ما هم مقبلون عليه إذا استمروا في لهوهم وانشغالهم من أجل جمع المال والتكالب عليه مؤكداً أن كل ما جمعه وثمره ماله إلى زوال إذا استمروا فيما هم فيه:

(٢) الشعر الجاهلي د/ محمد زغلول سلام ط - كلية الآداب بينها: سنة ١٩٨٧-١٩٨٨ ص ١٣٢.

(١) طوائف الشعراء في العصر الجاهلي د/ جودة أمين، دار الهاني للطباعة والنشر، ط الأولى، سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص

ألا تخافون قوماً لا أبالكُم
أبناء قوم تأوؤكم على حنق
أحرار فارس أبناء الملوك لهم
من الجموع جموع تزدهي القلعا^(٢٢)

بدأ الشاعر أبياته بأسلوب طلبى " ألا " الغرض منه التحضيض وإزالة حالة الركون التي تعيشها قبيلته، ويعمد الشاعر إلى بيان قوة العدو من خلال:

- بيان كثرتهم، وذلك في قوله: " كأمثال الدبا سرعا"، فقد وصفهم بالجراد لبيان كثرتهم.
- بيان قوتهم، في قوله: " تزدهي القلعا" فهم يستخفون الصخور العظام.
- أنهم لا دين لهم، فهم لا يعرفون الرحمة ولا يدركون الحلال من الحرام وذلك في قوله: " لا يشعرون أضر الله أم نفعاً".
- ويخاطب الشاعر قومه بأبيات تحمل في طياتها التهديد والوعيد لبني إياد حينما يبين لهم قوة العدو ومدى استعداده لهم فيقول:

فهم سراع إليكم بين ملتقط
شوكاً وآخر يجني الصاب والسلعا
لو أن جمعهم راموا بهدته
شم الشماريخ من ثهلان لا نصدعا
في كل يوم يسنون الحراب لكم
لا يهجعون إذا ما غافل هجعاً
خزراً عيونهم كأن لحظهم
حريق نار ترى منه السنا قطعاً
لا الحرث يشغلهم بل لا يرون لهم
من دون بيضتكم ربا ولا شبعاً
أنتم فريقان هذا لا يقوم له
هصر الليوث وهذا هالك صقعا
وقد أظلكم من شطر ثغركم
هول له ظلم تغشاكم قطعاً^(٢٣)

فالشاعر في خطابه السابق يلجأ إلى أسلوب البث المباشر مدعوماً بالصورة حتى يعبر عن إحساسه ومشاعره، " والبث المباشر أسلوب تعبيرى مألوف - في الشعر القديم - لا ينقص من القيمة الفنية للقصيدة، لأنه ليس بلازم أن يخضع التعبير الشعري لمنهج محدد، إذ المهم هو قدرة الشاعر على إبراز مضمونه والتعبير عنه تعبيراً يكشف - في جمال ووضوح - عن جميع جوانبه، ومختلف عناصره"^(٢٤)

(٢) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي ص ٣٤، ٣٥

(١) ديوان لقيط بن يعمر الإيادي ص ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠.

(٢) نصوص جاهلية د/ جودة أمين، دار الهادي للطباعة والنشر، ط الأولى سنة ٢٠٠٦ م، ص ٩٩.

يلجأ الشاعر إلى الأسلوب الخبري في الأبيات لتعميق الإحساس بالخطر لدى بني إيراد بأن الفرس يعدون لهم كل ما استطاعوا من عدة للقتال بين ملتقط شوكة وآخر يجني الصاب والسلعة. وقوة الأعداء قوة مادية ومعنوية ركز الشاعر عليهما معاً ليستنهض قومه، وتظهر القوة المادية في قوله:

لو أن جمعهم راموا بهدته شم الشماريخ من ثهلان لا نصدعا
وهذا يدل على قوة جيش الفرس.

وقوله: "لا يهجعون إذا ما غافل هجعا" يدل على اليقظة والاستعداد وقوله: "كان لحظهم حريق نار: يدل على شدة الغضب والغيط. أما القوة المعنوية فتظهر بوضوح في قول الشاعر "لا الحرث يشغلهم، هصر الليوث، قد أظلكم هول" كلها أمور من شأنها أن تدعو إلى اليقظة وأخذ الحذر.

واعتماد الشاعر هنا على الأسلوب الخبري ما هو إلا وقفة تدعو إلى التحول من طور الخمول والانشغال بالملاذات إلى طور القوة والنشاط، لأن قوة العدو لا تقابل إلا بالقوة، والرعونة والسفه لا يقابلان إلا بمثلتهما، خاصة ونحن في عصر لا يعترف إلا بالقوة سبيلاً للبقاء، ومثل هذا الأسلوب الخبري قادر على إظهار أحاسيس الأسى والحزن والضياع التي يمكن أن تلحق بقومه.

جـ بيان أسباب الضعف :

وضح لقيط في خطابه إلى قومه أسباب الضعف عن طريق المقارنة بين حالين، حال الأعداء وحال قومه، وفي معالجته لأسباب الضعف يرتكن إلى نوع من المصارحة بعيداً عن المجاملة، واثكاً الشاعر على صفات من شأنها أن تسلب القبيلة كل الفضائل، وتسلبها صفات الفخر وتصمها بالذل والعار، نلاحظ ذلك في قوله:

وانتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدرا
وتلتفحون حيال الشول أونة وتنتجون بدار القلعة الربعا
وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تجمعون، وهذا الليث قد جمعا
ما لي أراكم نياما في بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا^(١)

فالتصوير في الأبيات هو الأداة المفضلة عند لقيط، فهو يعبر بالصورة المتخيلة عما يحسه ويتنبأ به خوفاً على قومه لذا يبين:

- أسباب ضعفهم ممثلة في انشغالهم بزراعة الأرض والتكالب عليها.
- الاهتمام بالإبل باعتبارها مصدر ثروة بالنسبة لهم.
- السكينة والدعة التي يعيشون فيها اعتماداً على انتصارهم على أعدائهم في دير الجماجم.

وقد اعتمد الشاعر على صيغة عتابية في إطار استفهامي يعاتبهم على انشغالهم، وعدم اكثر اثمهم بما يحدث لهم من متغيرات تتصل بالحرب في قوله :

" مالي أراكم نياماً في بلهنية".

اعتمدت الأبيات السابقة علي ركيزتين فنييتين:

الأولى: هي أن الشاعر عمد إلى تحديد أسباب الضعف التي من شأنها أن تؤدي بالقبيلة، وهذه الأسباب من شأنها أن تجعل المستمع دائم التفكير والخوف إن لم يكن على أهله ونسائه فعلى هذه الثروة التي يثمرها.

الثانية: الصياغة فهو لم ينوع الخطاب بل عمد إلى مخاطبتهم بصفة الجمع " تحرثون - تبغون - تلقحون - تنتجون - تلبسون - تجمعون - أراكم - نياماً" ليبين حجم الكارثة التي تصيبهم، فليس منهم مجموعة ولا طائفة مستعدة للحرب، بل كلهم نيام في بلهنية.

وهذان الأمران يوضحان أن حب الوطن والخوف عليه أبرز الخيوط في نسيج الأبيات وتجسيد لمشاعر التوجس والخوف في وقت عصيب عاشه الشاعر مليء بانفعالات تساورها الشكوك بين الأمل والرجاء واليأس والقنوط.

د- الدعوة إلى توحيد الصف من أجل هزيمة الأعداء :

بيان مواطن الضعف يلزمها بيان مصادر القوة، خاصة أن الشاعر حكيم مجرب خبر الحياة، ويعلم ممكن القوة ومصدرها لذا يخاطب قومه بقوله:

فأشفوا غليلي برأي منكم حسن يضحي فؤادي له ريان قد نقعا

ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا إذا يقال له : افرج غمة كنعنا

صونوا جبادكم واجلوا سيوفكم وجددوا للقسي النبل والشرعا

اشروا تلادكم في حرز أنفسكم وحرز نسوتكم، لا تهلخوا هلعنا

ولا يدع بعضكم بعضا لنائبة كما تركتم بأعلى بيضة النخعا

اذكوا العيون وراء السرح واحترسوا حتى ترى الخيل من تعدائها رجعا

فإن غلبتم على ضن بداركم فقد لقيتم بأمر حازم فزعاً^(١)

نلاحظ أن الشاعر في هذه الأبيات تنحى عن الأسلوب الخبري، ولجأ إلى الأسلوب الإنشائي ممثلاً في الأمر والنهي لأن الموقف هنا لا يتطلب غير ذلك، فهو يريد منهم على وجه السرعة أن يعدوا عدة القتال عن طريق توحيد الرأي، والعناية بالجياد باعتبارها عدة القتال وجلاء السيوف... إلخ وأن يرسلوا العيون " فرقة استطلاع" لتكشف أحوال العدو. واستخدام

(١) المصدر السابق ص ٤١، ٤٢، ٤٣.

الشاعر لصيغة الطلب دليل على تراحم مشاعره وتدفق أفكاره فجمع لذلك بين صيغتي الأمر " اشفوا - صونوا - اشروا - اذكوا" وبين صيغة النهي " لا تكونوا - لا يدع" واستخدام هاتين الصيغتين يدل على أمرين هما:

- ١- الثورة الغاضبة التي يعبر بها الشاعر عن انفعاله وإحساسه بما يمكن أن يحدث فأبياته: " تنشيط للذات وتفرغ لمكبوتات، وهي بذلك إراحة نفسية من ضغوط غائصة فيتنفس الشاعر من خلال اللغة ما يعيد توازنه النفسي إليه"(2)
- ٢- حفز السامع إلى الانتباه والتركيز والتهيو لتنفيذ الأمر " فهو يحاول بقدر ما أوتي من مقدرة بيانية أن ينقل المتلقي إلى الحالة التي يعيشها هو، أو بمعنى آخر يحاول أن ينقله إلى التجربة نفسها التي دفعته إلى هذا الإبداع"(3)

هـ تعميق قيمة الماضى والخوف عليه من الضياع :

لقد كان تعميق قيمة الماضى محوراً من محاور خطاب لقيط إلى قومه، وجاء شعره صادقاً يدعو إلى الحفاظ على تراث الأجداد لأنه مناط فخرهم، والعربي دائماً يحب أن تظهر قبيلته بمظهر التفوق ولا يشاع عنها التراخي والكسل، ألم يعجب الشاعر ويفتخر مع قومه بل مع العرب جميعاً يوم انتصارهم في دير الجماجم؟، لذا فذاته تغلي الماء و خوفاً على ضياع هذا المجد التليد، يتضح ذلك في قوله:

يا قوم إن لكم من عز أولكم إرثاً، قد أشفقت أن يودي فينقطعاً
وما يرد عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أودل فأتضعاً
فلا تغرنكم دنيا ولا طمع لن تنعشوا بزماح ذلك الطمعا (1)

الأبيات توحى بإحساس مرير مشوب بالتوسل والتضرع مشفوعاً بحكم وأمثال ربما تكون دافعاً للاستجابة لكلامه، ورغم أن المعاني التي تحويها الأبيات تمتاز بالبساطة والوضوح فإن صدق العاطفة أدى إلى إثرائها و غزارتها، نلاحظ ذلك في صيغة النداء " يا قوم " التي توحى بالحب الشديد المشفوع بالخوف على عزهم وإرثهم، كما أنهم هم المسؤولون عن تحمل المسؤولية كما نلاحظ في صيغتي الاستفهام والنهي " ماذا يرد عليكم ؟" ، " فلا تغرنكم"

والأبيات في مضمونها تحمل بعدين

- أ- "بعد تعبيرى: ويتضح من خلال قدرة الشاعر في الإفصاح عن مشاعره كي ينفس عما يعتل في صدره تجاه من يتحدث إليهم.
- ب- بعد تأثيرى: بالتركيز على من يوجه إليه الكلام لدفعه إلى فعل معين"(2).

١. دراسة في لغة الشعر، د/جاء عبد، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص١٩.

٢. البلاغة والأسلوبية، د/محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية للكتاب، سنة ١٩٨٤، ص١٧٠.

٣. الديوان ص ٤٥.

(2) البلاغة والأسلوبية، د/محمد عبد المطلب ص ١٤٩.

لقد ضمن الشاعر كل طلب في أبياته علته ونتيجته في صوت انفعالي معتمداً على التعليل وشرح النتائج كي يحدث رد فعل إيجابي وسريع في نفوس قومه.

و- الاستنهاض بتعميق قيم الغيرة على الأصل والنساء:

الغيرة على النساء كان لها جانب بارز في خطاب الشاعر، لأنه ليس هناك أعز على المرء من عرضه وحرمة بيته، لذا جاء التركيز عليها كنوع من التحريض واستنهاض الهمم، وإعداد العدة للقتال، بالإضافة إلى أنها من الصفات الإنسانية التي أجمع العرف والدين على الحفاظ عليها، لذا اعتمد الشاعر في خطابه إلى قومه على النداء يحثهم على الخوف على حريمهم كما في قوله:

يا قوم ببيضتكم لا تفجعن بها إني أخاف عليها الأزلم الجذعا

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا على نساءكم كسرى وما جمعا

هو الجلاء الذي يجتث أصلكم فمن رأى مثل ذا رأيا ومن سمعا (1)

فتكرار النداء يثير الانتباه إلى أن هناك شيئاً مهماً يجب الخوف عليه، وليس أهم عند العربي من المحافظة على عرضه وحريمه.

ويبدو أن الشاعر قد أحس بأن قومه مازالوا في لهوهم، فأسرع بأسلوب خبري يقرر لهم بأن ما يعده كسرى هو الجلاء الذي لن يبقى لهم أثراً لأنه سيحتهم من أصولهم، وعلى كل عاقل أن يتدبر الأمر جيداً، لذا فإن الشاعر جاء بعجز البيت الثالث "فمن رأي مثل ذا رأيا ومن سمعا" ليحقق المزيد من الإثارة والاستنفار، ويكشف عن مدى استجابة بني إياد، كما يحقق نوعاً من الشعور القومي ليس عند بني إياد وحدهم ولكن بين سكان شبه الجزيرة العربية كلها.

ز- التأكيد على صفات القائد:

يؤكد الشاعر على جانب مهم في خطابه إلى قومه، وهو ضرورة اختيار القائد أو شيخ القبيلة الذي تتوافر فيه صفات الذل والشجاعة والإقدام... ولم تكن هذه الصفات بدعاً عند لقيط، بل هي سمات عامة تعارف عليها الجاهليون، فصفات القائد أو سيد القبيلة أحد الدعائم الرئيسية التي تقوم عليها هيبة القبيلة وعزتها. نلاحظ ذلك في قول الأفوه الأودي:

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

تلفى الأمور بأهل الرأي ما صلحت فإن تولوا فبالأشرار تنقاد (2)

وقد جمع لقيط الصفات المثلى للقائد الذي ينهض بقومه ويستطيع أن يوحدهم ويجمع كلمتهم في قوله:

فقلدوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

(1) الديوان ص ٤٥، ٤٦

(2) ديوان الأفوه الأودي ص ١٠

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
 مسهد النوم تعنيه ثغوركهم يروم منها إلى الأعداء مطلعاً
 ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبعاً طورا ومتبعاً
 وليس يشغله مال يثمره عنكم، ولا ولد يبغى له الرفعا
 حتى استمرت على شزر مريرته مستحکم السن، لاقحما ولا ضرعاً
 عبل الذراع أيباً ذا مزابنة في الحرب لا عاجزاً نكساً ولا ورعاً
 مستجداً يتحدى الناس كلهم لو قارع الناس عن أحسابهم قرعاً^(١)

لقد تمخضت عبقرية الشاعر عن الصفات الأصيلة التي لو توافرت في أي قائد لاستطاع أن يقود قبيلته إلى الذروة التي لا يدانيها شيء، وهذه الصفات هي: أن يكون خبيراً بأمور الحرب و مواجهة ظروف الحياة حلوها ومرها و السهر على حمى القبيلة و يتسم بالحكمة ويتخذ الشورى مبدأ في حياته و لا يهتم بالثراء و لا الرفعة لأولاده، بالإضافة إلى شجاعته وشرف نسبه.

هذه الخطوط العريضة لسيد القبيلة أو قائدها إذا توافرت فإنه يستطيع أن يحقق النصر، وبهذه الصفات استطاع الشاعر أن يعمق الإطار السياسي للنظام القبلي الذي يمثل إطاراً للكيان الاجتماعي السائد، لذا فخطابه يحمل نبرة عالية لقبيلة صار همها جمع المال والتكالب عليه، وأصبح البحث عن قائد أو بطل قومي هو الأمل المرتجى للشاعر لينقذهم مما سيقع بهم.

والشاعر رسم صورة دقيقة للقائد، وقد أتى في تصويرها على كل جوانبها، وكأنه يريد أن ينقل نموذجاً مثالياً في خياله يحقق به ما يتمناه.

حـ. الإشادة بالشخصيات العربية والتغنى بمآثرها:

وهو نوع من الحث على التحلي بالصفات الطيبة والتمثل بها، حيث يوقظ في قومه الأمل، ويوقد فيهم مشاعر النخوة والشهامة، ويحرك في داخلهم العزة التي سوف تُسلب منهم لو تراخوا في الدفاع عن حمى القبيلة.

ومن الشخصيات التي أكد عليها الشاعر شخصية "مالك بن قنان" و "زيد القنا" وقد استشهد بهما في اختيار القائد القوي الشجاع، يقول لقيط:

كمالك بن قنان أو كصاحبه زيد القنا يوم لاقى الحارثين معا
 إذ عابه عائب يوماً فقال له: دمت لجنبك قبل الليل مضطجعاً
 فساوروه فالفوه أخا علل في الحرب يحتبل الرئبال والسبع^(١)

(١) الديوان ص ٤٦، ٤٧، ٤٨.

نلاحظ أن الشاعر أكد على صفة الشجاعة والقوة والصبر على الشدائد بالإضافة إلى الحزم والحكمة، وهي الصفات التي يتطلبها موقف البحث عن قائد: لذا أثر الشاعر هنا استخدام الأسلوب الخبري المصحوب بالمثل "دَمَتْ لجنبك" كي يكون أقدر على الإقناع، وكان في تشبيهه القائد بالرئبال "الأسد" والسبع دليل على تقديرهم لقوته " فقد كان للأسد نصيب في الشعر الجاهلي خاصة في المدح، فاستعير منه الإقدام والصولة للفرسان المحاربين، كما كان الأسد علماً لقبائل قبيلة أسد المشهورة من ربيعة، دلالة على شجاعتها وقوتها"^(٢١).

لقد جعل لقيط "مالك بن قنن و زيد القنا" مثالين للشخصية العربية المطلوبة لأبناء القبيلة، فأصبحا قدوة يهدف الشاعر من وراء إظهارها إلى اقتداء أبناء القبيلة بها من شجاعة وصبر وقوة وتأكيد لهذا الحس العميق في الإحساس بالشعور تجاه القبيلة. إن الإحساس بالمسؤولية تجاه القبيلة دفع الشاعر إلى وضع آخر لأفكار يحددها ويسديها إلى عقلاء قومه، فاهتم بالفاظه وعباراته، وأثر انتقاء الألفاظ التي تحمل المعاني القوية، وتؤثر في نفوس سامعيها، ومن شدة إحساسه بالخطر الذي يحق بقومه وما يُدبر لهم في الخفاء توالى عليه الخواطر، وتواردت الأفكار على ذهنه من تلقاء نفسها فلسانه ينطق بما تجيش به مشاعره، ولا غرابة في ذلك من شاعر مخلص لوطنه وعروبته حتى لو كان في إساءة النصيح هلاكاً له.

**** صياغة الخطاب عند لقيط بن يعسر الإيادي**

الألفاظ:

حين نمنع النظر في خطاب لقيط الإيادي الذي وجهه إلى قومه يحذرهم بطش كسرى نلاحظ أنه على الرغم من السرعة والعجلة التي كتب فيها شعره فإنه يتميز بالجزالة والرصانة، وهذا أمر ضروري فقد كان لطبيعة العصر الذي عاش فيه، بالإضافة إلى الظروف التي أحاطت بثومهم أثر في ذلك. لذا كان لابد من خطاب يمتاز بقوة الألفاظ وجزالتها حتى يكون أكثر تأثيراً في النفس في مواجهة الفرس الذين دأبوا على استباحة أرض العرب والنيل من كرامتهم.

إن خطاب الشاعر منتزع من مشاهد الحياة، ويمثل موقفاً فاصلاً بين أن نكون أولاً نكون، واستطاع أن يصارح قومه بما هم فيه، وما يجب أن يكونوا عليه في نخبة مختارة من الألفاظ، خلغ عليها لونا من الخيال كي يستميل إليها كل إنسان محب لقبيلته، ولغته كلغة شعراء عصره " لغة منتخبة جودها أفراد أوتوا نصيباً زائداً من الفصاحة والحس اللغوي والثروة اللفظية والمقدرة التعبيرية عما يفكرون ويشعرون"^(٢٢).

ولغة لقيط ليست من عالم علوي بعيد المنال بل هي مكتسبة و " تتبع نبوعاً تام الصدق من بينتها ومجتمعها، وتقرب اقتراباً وثيقاً من لغة الحياة اليومية التي كان يتحدث بها الناس العاديون في ذلك الزمان"^(٢٣).

الديوان ص ٤٩، ٤٨^(٢١)

الشعر الجاهلي د/محمد الديوان ص ٤٩، ٤٨^(٢٢)

زغلول سلام، ص ٢٤^(٢٣)

(٢٦) الشعر الجاهلي منهج في دراسته ج ٧٨٢/٢ د/ محمد النويهي - الدار القومية. د-ت.

(٢٧) المصدر السابق ج ٧٨٢/٢.

وتتبع ألفاظ الشاعر من عاطفته وتتأثر بالموضوع الذي يتناوله فإذا كان قد وقف على الأطلال وقوفاً اقتضته الأعراف الشعرية، والذي كان تمهيداً لموضوعه واستخدم فيه ألفاظاً فيها نوع من الرقة المشوبة بالحزن والألم لفراق محبوبته. فإنه يلجأ إلى الألفاظ النابضة الثائرة قوية الإيقاع في الحديث عن حالة قومه، والدعوة للاستعداد للقتال فمن الأول قوله:

يا دار عمرة من محلها الجرعا هاجت لي الهم والأحزان والوجعا^(٢)

فألفاظ البيت السابق وما بعدها من أبيات وردت في مقدمة القصيدة في مضمونها سهلة- إذا استثنينا الألفاظ التي تدل على الأماكن - ولها من الدلالة ما يدل على رقي ذوقه وعفته، فلم نجد تفصيلاً حسيّاً على شاكلة الأعشى أو امرئ القيس، بل كلمات رقيقة تدل على أثر اللوعة لفراق محبوبته مثل " هاجت، تامت - خرعة - طيف " حتى ولو كانت هناك ألفاظ فيها صعوبة فإنها كانت منتشرة وسائغة في العصر الذي قيلت فيه.

ومن الثاني قول الشاعر:

مالي أراكم نياما في بلهنية وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

فاشفوا غليلي برأي منكم حسن يضحى فزادي له ريان قد نغعا

ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا إذا يقال له :افرج غمة كنعا

لا تلهكم إبل ليست لكم إبل إن العدو بعظم منكم قرعا^(٣)

فالألفاظ تمثل الموقف أصدق تمثيل، فهي ألفاظ قوية تناسب التهديد والحرب والدعوة إلى الاستعداد لملاقاة العدو مثل " بلهنية - شهاب الحرب - اشفوا غليلي - مات مكتنعا"، وكلها ألفاظ تعطي إشارة واضحة إلى أن لقيطاً ملم بطبيعة قومه، ومدرّك لما هم فيه من لهو وانشغال بجمع المال، لذا جاءت ألفاظه مصورة لحالتهم النفسية وما لها من ميول وعواطف.

فالموقف الشعوري الذي تفجرت عنه الأبيات هو موقف التأنيب واللوم لتخاذلهم وانشغالهم بالمال والثروة، وهذا الموقف يناسبه اللفظ القوي، والتعبير الجزل، وفخامة العبارة، وجهارة الصوت، وهذه الألفاظ من شأنها أن تساعد في خلق شعور قومي بين أبناء القبيلة، بل لأي إنسان يسمعها ويستجيب لها، ولكن هيهات إن بني إياد ظلوا في تخاذلهم وانشغالهم بجمع المال حتى أتى عليهم كسرى فمزقهم كل ممزق، وتفرقوا أيدي سبا.

الديوان ص ٣٠، لم أذكر ما تلاه البيت من أبيات أخرى تجنباً للتكرار واكتفيت بالإشارة إليها من خلال كلمات وردت بالأبيات. ^(٢)

المصدر السابق ص ٤٤، ٤٤. ^(٣)

وتمتاز ألفاظ الشاعر بما يلي:

- ١- قدرتها الدلالية على ما يريد الشاعر، وقد تحقق ذلك من خلال قدرته في توظيف الألفاظ التي تدل على موقفه الشعوري، فقد نشأ في بيئة عربية خالصة ليس فيها مجال لعنصر أجنبي فلسانه عربي خالص، حتى وإن كان قد عاش في بلاط الفرس فترة من الزمن، فقد عاش بعد أن صقلت موهبته اللغوية، واستطاع أن يلم بألفاظ البيئة العربية ويتمثلها أعظم تمثيل.
- ٢- قدرتها مع غيرها من ألفاظ في خلق صورة واضحة لحالة بني إباد وحالة الفرس وهما في موقفين متناقضين، وهذه الصورة لا تتضح معالمها للقارئ إلا عن طريق تضافر الألفاظ مع بعضها البعض، بالإضافة إلى الطلاقة البيانية للشاعر، وقدرته في التعبير عما يحس ويرى نلاحظ ذلك في قوله:

أحرار فارس أبناء الملوك لهم من الجموع جموع تزدهي القلعا

فهم سراع إليكم ، بين ملتقط شوكا وآخر يجني الصاب والسعا^(١)

ويقول عن بني إباد:

وأنتم تحرثون الأرض عن سفه في كل معتمل تبغون مزدرا

وتلقحون حيال الشول أونة وتنتجون بدار القلعة الربعا^(٢)

فالألفاظ بتضافرها استطاعت أن تبين حال الفريقين من خلال اعتماد الشاعر على الألفاظ القوية المعبرة عن الحالين، وهنا يكون المغزى الحقيقي لخطاب الشاعر ممثلاً لمعنى الأدب الذي " هو تصوير لمواطن الإنسان ومشاعره تجاه قومه وما يحيط بهم بألفاظ مختارة منتقاة، بدقة وعناية، يشخص فيها كل ما يحسه الأديب من انفعالات بصدق وقوة وتوضع وضعاً خاصاً، بحيث تتحول هذه الألفاظ في نفس مستقبلها، قارئاً كان أم سامعاً إلى أصلها الأول من مشاعر وإحساسات"^(٣).

الأساليب:

ارتكز الخطاب القومي عند لقيط على مجموعة من الأساليب منها:

١- النداء

لجأ الشاعر للنداء لاستمالة السامع والقارئ إليه كي يجعلهما دائماً في حالة يقظة وانتباه، وقد استخدم صيغة النداء منذ مطلع القصيدة في قوله: يا دار عمرة. فمخاطبة الشاعر للديار تدل على شدة حبه لها وتقديسه لكل ما فيها، وكان الشاعر قد نظر فوجد العالم من حوله أصبح خالياً ممن يسمع كلامه أو يستجيب لندائه فتوجه بحديثه إلى الديار لأنها الدليل المادي على وجوده وهي التي تمنحه العزة والكرامة، فكيف له أن يسلب هذه الأشياء، وقد لجأ الشاعر

المصدر نفسه ، ص ٣٦، ٣٥. ^(١)

المصدر نفسه، ص ٣٨. ^(٢)

في تاريخ الأدب الجاهلي د/علي الجندي ص ٢٥٣. ^(٣)

إلى نداء عمرة، وهي رمز لأي فتاة عربية، وقرن النداء بالهم والحزن والوجع لأن حياة قبيلته رهن بالحفاظ على عمرة ومثيلاتها من أبناء القبيلة ولن يتأتى ذلك إلا بالاتحاد والاستعداد للعدو القادم، إن هذا النداء كفيل بإحداث توتر في النفس يجعل أي إنسان ذي غيرة ينتبه لما يقول ويتأثر به.

ويتجاوز النداء " عمرة " إلى حادي الإبل أو المُرسَل الذي يحمل رسالة الشاعر وخطابه إلى قومه فهو يحثه على السرعة والعجلة لأن الموقف لا يحتمل التأخير فيقول :

بل أيها الراكب المزجي على عجل نحو الجزيرة مرتاداً ومنتجعاً

والمُرسَل هنا ليس شخصاً واحداً بل إن الشاعر قد أوصى بهذه الرسالة كل عربي مخلص أمين طالب حاجة، أو باحث عن أرض يطلب كلاًها بأن يبلغ كلامه إلى بني إِياد، وهذا دليل على أهمية هذه الرسالة، وقد استتبع هذا النداء تقديم المسوغات لتوجيه الخطاب إلى الراكب وعلى عجل.

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم أني أرى الرأي إن لم أعص قد نصعا

إن هذا المسوغ أمر لا محيص عنه، وهو أمر مشوب بالتمني والرجاء، ويكشف في الوقت ذاته عن حالة الاضطراب والفرع التي تسيطر على الشاعر نتيجة الإحساس بالخطر الذي يحرق بقومه، واستخدام النداء والأمر في بيتين متتالين "دليل على تزام

المشاعر وجولان الأحاسيس وتدفع الأفكار في نفسه واستخدامها لهدفين: أولهما: أن يبين مدى حركية المشاعر والأحاسيس والأفكار التي يحفل بها باطن الشاعر، وثانيهما: هو شحذ قدرة التلقي لدى القارئ أو السامع وحفزها على الانتباه والاكتراث بواسطة الصيغة الندائية حتى تكون قادرة على التهيؤ الإيجابي لاستقبال الصوت الأمر المائل في الصيغة الأمرية"^(٢٨)

وقد يتبادر إلى ذهن الشاعر بأن قومه ربما لن يلتفتوا إلى خطابه فيعمد إلى استخدام النداء للتعبير عن الحسرة والأسف حال عدم الإذعان والاستجابة لخطابه والاستمرارية فيما هم فيه من تفرق وتشتت فيقول:

يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعوا

إن النداء أشبه بالنذب المليء بالحسرة والأسف إن ظل بنو إِياد في تفرقهم، وقد لجأ الشاعر إلى مثل هذا النداء لبيان هول الموقف وسوء العاقبة التي تنتظر قومه.

ويأتي النداء عند الشاعر بقصد الاستعطاف والحث على الإنصات له كما في قوله:

يا قوم إن لكم من عز أو لكم إرثاً قد أشقت أن يودي فينقطعا

إن النداء هنا اتخذ منعطفاً آخر فيه نوع من التحذير الشديد والخوف على عزهم ومجدهم، كما أن توجيه النداء إلى قومه دليل على حبه الشديد لهم، وهو نوع من استمالة القلوب إليه، وكأنه يؤكد لهم أنه رغم بعده عنهم ووجوده كرهينة أو عامل في بلاط كسري فلن يدعوهم ذلك إلى التكر

(٢٨) جدلية الأداء النبادي في الشعر العربي المعاصر د/ حسن البنداري مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٩٩ م ص ٣٤.

لقومه، واستخدام النداء يقوم على عاملين هما المبدع وهو "الشاعر"، المتلقي وهم "قومه" وعن طريقهما يكون للنداء أثره في الخلق الإبداعي للنص الأدبي.

ويكرر الشاعر النداء مركزاً على الأصل وضرورة الحفاظ عليه في قوله:

يا قوم بيبضتكم لا تفجعن بها إنني أخاف عليها الأزلم الجذعا

ثم يصل النداء إلى قمة الإثارة حينما يذكرهم بضرورة الغيرة على النساء في قوله :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيرا على نساكنكم كسرى وما جمعا

إن الغيرة على النساء هي الشيء المثير الذي رآه الشاعر وسيلة ربما تثير قومه، وقد زواج الشاعر بين صيغتي النداء والنهي ليعبر عن معان كثيرة تثير العربي وتحرك وجدانه وتجعله أكثر خوفاً على قومه فكسرى لن يستولي على المال فقط، ولا على ما خلفه الأجداد ولا بالقضاء على أصولهم، بل سيستبيح حرمة النساء ويأخذهن سبايا، وهذا أذل شيء لنفس العربي، وقد ساعد هذا التزاوج بين النداء والنهي على ظهور عاطفة الشاعر الهائجة المستتارة بعدوان الفرس على قومه.

٢- التضاد والمقابلة :

يمثل التضاد لوناً من المحسنات البديعية، وقد اعتمد عليه الشاعر في خطابه إما لبيان تمنع محبوبته وتدللها عليه، وإما لبيان حال قومه وحال الفرس والتناقض بينهما، وإما لبيان الصفات التي يجب أن يكون عليها القائد الحق المحب لوطنه المدافع عنه.

يقول الشاعر في وصف تمنع محبوبته وتدللها عليه في مطلع القصيدة.

جرت لما بيننا حبل الشموس فلا يأساً مبيتاً نرى منها ولا طمعاً

فالمحبة لا تستقر على حال فلا هي تُؤسّسه من رؤيتها، ولا هي تفي له بما يطمع فيه من لقاء، وكان الحديث هنا عن تمنع المحبوبة وعفتها مقدمة لما سيذكره بعد ذلك من خوفه على النساء نتيجة غزو كسرى وبطشه بهم.

وفي رحيل المحبوبة مع قومها يقول:

" طورا أراهم وطورا لا أبينهم "

إن التضاد بين "أراهم" و "لا أبينهم" من شأنه أن يجعل القارئ في حالة تيقظ مستمر، وانفعال مع الشاعر، فالحالة النفسية للقيط جعلته مثلهما لرؤية محبوبته فهي ربما تختفي وراء الكتمان الرملية، ولكن إذا نزلت سهلاً تلوح له صورتها، فالشغف بها جعله يلمس صورتها حتى ولو لم تكن ظاهرة أو مرئية.

وفي تحذير قومه بطش كسرى يجعل من المقابلة نوعاً لتحفيز الهمم وشحن النفوس حين يقارن بين حال قومه وما هم فيه من تفرق، وبين اتحاد الفرس.

يا لهف نفسي إن كانت أموركم شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا

فبني إيراد متفرقون، وهذا أمر يدعو إلى الحسرة والحزن، والفرس متحدون وهذا أمر يدعو للخوف والترقب، واعتماد الشاعر هنا على التضاد من شأنه أن يبين سوء موقف بني إيراد.

وحينما يتحدث عن خلق الفرس وطباعهم يتخذ التضاد وسيلة لبيان ذلك فيقول:

"لا يشعرون أضر الله أم نفعاً"

والشاعر في استخدامه للتضاد يريد أن يبين أن الفرس قوم لا دين لهم ولا خلق لذا يجب إعداد العدة لهم.

وفي بيان استعدادهم للحرب يلجأ إلى طباق السلب فيقول:

"لا يهجعون إذا ما غافل هجعا"

وحينما يلوم قومه على ما هم فيه من راحة ودعة يقول:

وتلبسون ثياب الأمن ضاحية لا تجمعون، وهذا الليث قد جمعا

وحينما تزداد ثورته على قومه يلجأ إلى المقابلة في مثل قوله:

وما يرد عليكم عز أو لكم إن ضاع آخره، أو ذل فاتضعا

وفي بيان الصفات المثلى للقائد يقول:

"يكون متبعا طورا ومتبعا"

"متبعا- متبعا" صفتان أساسيتان لأي قائد فهو قوي ذو رأي يسمع كلامه بالإضافة إلى تمتعه بالحكمة والمشورة فهو يستمع لأرائهم. إن لقيط الإيادي استطاع أن يوائم بين استخدام التضاد والمقابلة كنوع من المحسنات البديعية وعاطفته بحيث يمكن القول: إن استخدامهما معا كان بمثابة الصوت الخارجي للشعور الداخلي لذا جاءت أبياته فخمة في بنائها، رصينة الألفاظ، وتمتاز بنبرة عالية من شأنها أن تجذب المستمع أو القارئ.

٣- الأمر

من أهم ركائز الخطاب القومي عند لقيط الإيادي الاعتماد على فعل الأمر ليبين للقارئ والسامع أن الموقف جد خطير ولا يحتمل الانتظار، وكان ذلك واضحا في أول القصيدة بعد المقدمة الطلالية حينما يقول للمرسل في صدر البيت الثامن:

"أبلغ إيادا وخلل في سراتهم"

أبلغ: يعني ضرورة التبليغ لكل أفراد القبيلة، ولكن الشاعر أمر المرسل بشيء آخر وهو "خلل" وهو أن يخص في إبلاغه السادة العقلاء لأنهم أكثر استجابة وانصياعا لكلامه.

وحينما يحثهم على الاستعداد لعدوهم يأمرهم بعدة أوامر تعد خلاصة خبرته في الحياة، وتسهم في بناء أي مجتمع وجعله قويا يقول لهم:

- صونوا جياذكم واجلو سيوفكم
 - اشروا تلادكم في حرز أنفسكم
 - اذكوا العيون وراء السرح واحترسوا
 - قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم
 - فقلدوا أمركم لله دركم
- وجددوا للقسي النبل والشرعا
وحرز نسوتكم، لا تهلكوا هلعاً
حتى ترى الخيل من تعدائها رجعا
ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعها
رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

فالشاعر أثر استخدام صيغة الطلب "الأمر" الماثلة في الأفعال "صونوا- اجلوا- اشروا- اذكوا- احترسوا- قوموا- افزعوا- قلدوا"، وهذه الأفعال توجي بضرورة التنفيذ العاجل لما يريد الشاعر ابتداء من الحفاظ على الجياذ والعناية بأدوات الحرب كالسيوف والقسي ... إلخ، والمحافظة على أنفسهم ونسائهم، وأن يرسلوا العيون "الجواسيس" ليستطلعوا الأخبار، وأن يحترسوا حتى لا ينتبه إليهم الأعداء، ثم يقلدوا عليهم قائداً يتصف بالصفات المثلى للقائد، والأبيات السابقة تركز على إجراءين هامين هما:

- ١- الاستعداد للأعداء بكل الوسائل.
- ٢- اختيار القائد المناسب الذي يستطيع تحقيق النصر.

ومجموعة الأوامر السابقة تبين لنا بجلاء دور الشعراء وأهميتهم في مجتمعاتهم، فقد كانوا بمنزلة الأنبياء، يهدون الناس ويرشدونهم ويبينون لهم جادة الطريق "فالشعراء أخذوا يحصرون مهمتهم داخل نطاق القبيلة، فجنّدوا أنفسهم لخدمتها، وعبروا عن همومها وطموحها وتأكيد وجودها وسط هذا المجتمع الذي يدين بالولاء لمنطق القوة والكثرة والمنعة"^(٢٩).

٤- النهي

لجأ لقيط إلى استخدام أسلوب النهي باعتباره وسيلة مثلى للتوجيه وهو أكثر تأثيراً في المتلقي، والشعر ما هو إلا كلمات " لا قيمة لها في حد ذاتها، وإنما قيمتها في صياغتها صياغة فنية جميلة"^(٣٠).

وتتعدد أغراض النهي عند الشاعر فقد يستخدمه على سبيل الالتماس أو التمني أو الرجاء نلاحظ ذلك في قوله:

"ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا"

فالفعل المضارع المقترن بواو الجماعة والمسبوق بلا الناهية هو وسيلة الشاعر كي يحذرهم من قبول الذل مثلاً في قوله: "مكتنعا"، وحينما يضع يده على الداء المتأصل في نفوسهم وهو تفرقهم وانشغالهم بالثروة وجمع المال يستخدم النهي فيقول:

"ولا يدع بعضكم بعضاً للنائبة"

ويقول: "لا تهلكم إبل ليست لكم إبل"
"لا تثمروا المال للأعداء"

(٢٩) نظرية الشعر في النقد العربي القديم د/ عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، ص ٢٨٩.

(٣٠) المصدر السابق ص ٣٠٢.

إن النهي في الأبيات يهدف إلى قيمة تربوية، وهي بناء بني إِياد وتقويم سلوكهم، ومحاولة من الشاعر لرسم معالم الطريق الصحيح الذي يجب أن يكون، لذا أثر أسلوب النهي وغيره من الأساليب الإنشائية، ونوع بينها وبين الأسلوب الخبري كي "يُوحى بقوة المضمون ونصاعته، ويجسد حدة انفعاله وثورته"^(٣١).

٥- حسن النسق

يلجأ الشاعر كثيراً إلى استخدام حروف النسق "العطف" في مهارة وذلك عندما يلجأ إلى عطف كلمات كثيرة يرتب بعضها على بعض، ولعل أكثر الحروف استخداماً عند الشاعر حرف الواو في مثل قوله:

"هاجت لي الهم والأحزان والوجع"

فقد عطف الوجد والأحزان على الهم ليبين كثرة ما أصابه نتيجة فراق المحبوبة، وحينما يوجه قومه إلى الاستعداد وإعداد العدة يلجأ إلى استخدام حرف العطف "الواو" فيقول:

"صنونا جيادكم واجلو سيوفكم"

ويقول: "انكوا العيون وراء السرح واحترسوا"

وفي بيان صفات القائد يستخدم حرف العطف الواو فيقول:

"يكون مُتَّبَعاً طوراً ومُتَّبِعاً".

فالفصقان لابد أن تتحققا في القائد حتى يكون رأيه سديداً ويجلب النصر لقومه. وليبيان قوة القائد يقول:

"في الحرب يحتبل الرنبال والسبع"

فقد عطف السبع على الرنبال لبيان القوة التي يجب أن يتحلى بها القائد.

وقد يستخدم الشاعر حرف العطف "أو" كما في قوله:

وما يرد عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أو ذل فاتضعاً

وفي مثل قوله:

"كمالك بن قنّان أو كصاحبه"

وقد يستخدم حرف العطف "ثم" حينما يستفز قومه لقتال العدو فيقول:

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعاً

(٣١) شعراء وتجارب في العصر الأموي د/ جودة أمين، دار الثقافة العربية، القاهرة سنة ١٩٨٩ م ص ١٤٤.

إن استخدام النسق من شأنه أن يؤثر ويقنع في آن واحد، بل إنه يجعل أسلوب الشاعر أكثر سموًا، واستخدام الألفاظ والربط بينها عن طريق النسق يجعل القصيدة تكتسب شخصية خاصة لها فاعليتها وتأثيرها في النفوس.

*** الخيال:

يعد الخيال من أبرز العناصر المؤثرة في شعر لقيط الإيادي، فشعره تصوير لأمر الحياة لدى بني إباد، وتصوير لجيش كسرى وما هم فيه من استعداد دائم للنيل من عدوهم، ولا يمكن للقاريء أن يستوعب أفكار لقيط إلا عن طريق الصورة التي تعد أساس العمل الفني " فالصورة الشعرية تنقل إلى القاريء عاطفة الشاعر وتجربته، وتنقل كذلك فكرته التي انفعّل بها، وهي وسيلة من وسائله في استعمال اللغة على الوجه الذي يكفل نقل مشاعره وأفكاره فيؤثر في نفوس قرائه" (٣٢).

والصور التي يعتمد عليها الشاعر في تدعيم عمله الفني ليست وليدة الصدفة أو من عالم علوي يبعد عن الشاعر، بل إن الشاعر يرسم صورة من واقعة المعيشي وتجاربه في الحياة، ومشاهدته وأثر ذلك في نفسه، ومن هنا كان الخيال من أهم العناصر المساهمة في الإعلان والبوح عن عاطفة الشاعر.

وصور الشاعر في معظمها صور جزئية تعتمد على التشبيه أو الاستعارة أو الكناية أو المجاز، ولكن ورغم كونه شاعرًا جاهليًا يعتمد شعره على وحدة البيت

فإننا لا نعدم رسم الصورة الكلية في شعره، خاصة عندما يعطينا صورة مثلى عن الصفات الحقيقية التي يجب أن يكون عليها القائد العربي كقوله:

فقتلوا أمركم لله دركم رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا

مسهد النوم تعنيه ثغوركهم يروم منها إلى الأعداء مطالعا

ما انفك يحلب در الدهر أشطره يكون متبّعاً طورا ومتبّعاً

وليس يشغله مال يثمره عنكم ولا ولد يبغى له الرفعا

حتى استمرت على شزر مريرته مستحکم السن لا قمحا ولا ضرعا

كمالك بن قنان أو كصاحبه زيد القنا يوم لاقى الحارثين معا

إذ عابه عائب يوماً فقال له دمث لجنبك قبل الليل مضطجعا

فساوروه فالقوه أخا علل في الحرب يحتبل الرنبال والسبعا

(٣٢) الإسلام في شعر شوقي. د/ أحمد الحوفي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، د ت، ص ٢٧٣.

عبل الذراع أيبا ذا مزابنة لو قارع الناس عن أحسابهم قرعا^(٣٣)

هذه الصورة الكلية تتألف من صور جزئية عديدة، وفيها يرسم الشاعر صورة للقائد الذي يجلب النصر لقبيلته، ولم يسلك الشاعر إلى فكرته التعبير المباشر، بل عمد إلى التصوير، فهو خبير بأمر الحرب، وقادر على تحمل الشدائد ويقظ، والصور الجزئية في مجموعها تضع الأطر المناسبة لقومه لاختيار القائد المناسب القادر على الدفاع عن حمى القبيلة، ومن الأمثلة على ذلك قوله:

" فقلدوا أمركم " استعارة مكنية، و" رحب الذراع " كناية عن صفة وهي القوة و" رخاء العيش ساعده " استعارة مكنية و" عض مكروه " استعارة مكنية و" مسهد النوم " كناية عن اليقظة " و" يلب در الدهر " استعارة وكمالك بن قنان: تشبيه تمثيلي و يحتل الرنبال و عبلى الذراع: كنياتان عن الغلظة والقوة.

وصورة القائد السابقة منتزعة من البيئة العربية التي لا تعترف إلا بالشهامة والجرأة والقوة والحكمة والقدرة على مجابهة الأمور، وكأنها صورة مثالية ظل الشاعر يبحث عنها في عالم الخيال لأنها لم تتحقق على أرض الواقع لأن بني إباد ظلوا في تخاذلهم، ولم يتخذوا لهم قائدا تتوافر فيه الصفات التي تمنّاها ، ولذا هزموا شر هزيمة وقضى عليهم.

أما النوع الثاني من الصور الخيالية فهي الصور الجزئية التي تتمثل في التشبيه والاستعارة والكناية.

فمن التشبيه قوله في وصف جنود الفرس:

خزراً عيونهم كان لحظهم حريق نار ترى منه السنا قطعاً

فالشاعر يصور غيظ الفرس وحنقهم على بني إباد فعيونهم تخرج منها نار مشتعلة تحرق كل من يواجهها.

وقوله: "ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا "

فهو ينهاهم عن الركون إلى الذل

وقوله في بيان كثرة جنود الفرس : "أمسوا إليكم كأمثال الدبا سرعا"

فهو يصف العدو في كثرتهم بالجراد.

ومن الاستعارة قوله في المقدمة الطللية:

فما أزال على شحط يؤرقني طيف تعمد رحلي حيث ما وضعاً

وقوله :

فأشفوا غليلي برأي منكم حسن يضحي فوادي له ريان قد نقعا

وقوله:

وما يرد عليكم عز أولكم إن ضاع آخره أو ذلّ فاتضعاً

فلا تغرنكم دنيا ولا طمع لن تنعشوا بزماح ذلك الطمعا

ومن الكناية قوله في بيان قوة الفرس:

"من الجموع جموع تزدهي القلعا"

وقوله في بيان غفلة بني إياد:

"مالي أراكم نياماً في بلهنية"

وقوله في أخذ الحذر والاستعداد للعدو:

قوموا قياماً على أمشاط أرجلكم ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

هذه أهم الصور التي من الممكن أن نلاحظها في شعر لقيط، وبصفة عامة هناك ملاحظات على الصورة:

- ١- أن الصورة مستقاة من بيئة الشاعر وتجاربه وملاحظاته يتضح ذلك في ذكره للأسد والرنبال، وكذلك التشبيه بالشخصيات العربية المعروفة في عصره.
- ٢- أنها صورة من صور التعبير عما يحسه الشاعر، ووسيلة لتقريب الفكرة في ذهن القارئ والسماع، وقد عمد إليها الشاعر لجعل قومه أكثر استجابة لدعوته وأكثر إحساساً بالخطر المحيط بهم.
- ٣- تميزت الصور بغلبة الجانب الفكري، وبروز الناحية العقلية حتى يكون أكثر تأثيراً، ولكي تتفق مع الواقع العقلي والمنطق حتى لا يستهين القارئ بفكرته أو بكلامه، لذا كان اعتماده على التشبيه أو التمثيل عموماً نوعاً من ترسيخ الفكرة.

**** الموسيقى:

تعد الموسيقى من أهم عناصر صياغة الشعر لما لها من تأثير في النفس يساعد على ترسيخ الفكرة في ذهن القارئ أو السماع بالإضافة إلى أنها تحرك المشاعر، وتجد فيها من المتعة ما لا تجده في غيره من الكلام النثري، فللكلمة إيقاعها، وللحروف جرسها، وللقصيدة وزنها وقافيتها، إلى جانب الإحياء الصوتي في الأداء، وانفتاح المقاطع الداخلية، وهذه كلها تتضافر على خلق جو موسيقي يرافق القصيدة العربية ويعبر عن روحها^(٣٤).

وتنقسم الموسيقى إلى لونية: خارجية وداخلية:

(٣٤) قضايا الشعر في النقد العربي د/ إبراهيم عبد الرحمن، دار العودة بيروت ص ٣٦ ط ٢، سنة ١٩٨١ م.

الخارجية وتتمثل في الوزن وإيقاع القافية ويمكن للأذن أن تدركه وتتابع حركاته وسكناته.

الخفية : وتعتمد علي النغم الخفي الذي تحسه النفس من خلال مجموعة الدلالات والإيحاءات الفكرية والشعورية ،وتضافرهما مع الألفاظ والخواطر والصور عن طريق ذوق الأديب الفني وقدرته الأدبية وسعة ثقافته وثراء معجمه اللغوي.

أما **الموسيقى الخارجية** " الوزن والقافية" فإن الشاعر اعتمد في ديوانه على بحرین فقط من البحور الشعرية هما: **بحر الوافر**، الذي نظم عليه رسالته الأولى التي لا تتجاوز أربعة أبيات، و**بحر البسيط التام**، وقد نظم عليه رسالته الثانية، والتي تجاوزت الخمسين بيتاً، وهما بحران يمتازان بالخفة والرشاقة ويتناسبان مع حالة الشاعر، فهو يريد من قومه أن يستوعبوا ما يقوله بسرعة، ويعودوا العدة لملاقاة الفرس، فالموسيقى نابعة من حاجته إلى بلوغ غايته.

وقد اعتمد الشاعر مع البحر الوافر قافية الدال المكسورة.

سلام في الصحيفة من إياد إلى من بالجزيرة من إياد

ومع البحر البسيط التام اعتمد العين المطلقة، لكي تنقل زفراته وآلامه وخوفه على قومه وكأنه يجد في ألف الإطلاق راحته وأملًا في استجابة قومه له.

ويحسن الشاعر استخدام الكلمات للقافية حين يختار حرف الدال ويتمثلها في كلمات تدل على انشغالهم أو تهويل ما سيحدث لهم ككلمات " النقاد والجراد، وعاد، في قوله:

بأن الليث كسرى قد أتاكم فلا يشغلكم سوق النقاد

أتاكم منهم ستون ألفاً يزجون الكتائب كالجراد

على حنق أتيناكم فهذا أو ان هلاككم كهلاك عاد^(١)

والأمر كذلك في قافية العين المطلقة، فقد أثر كلمات تدل على حبه لقومه وخطورة الموقف كقوله: نصعباً - اجتمعوا سرعاً - القلعا، وربما كان هذان البحران هما الأقدر على استيعاب تجربة الشاعر ومعاناته وشدة خوفه على قومه.

أما **الموسيقى الداخلية** " فهي هذا الانسجام الصوتي الداخلي الذي ينبع من هذا التوافق الموسيقي بين الكلمات ودلالاتها حيناً، أو بين الكلمات بعضها وبعض حيناً آخر، أو قل هذا الانسجام الصوتي الذي يحققه الأسلوب الشعري من خلال النظم وجودة الرصف^(٢)

ومن مظاهر الموسيقى الداخلية دلالة اللفظ وإيحائه، فقد استطاع أن يعبر تعبيراً صادقاً عن طريق الألفاظ وما تحمله من إيحاءات ودلالات وحس موسيقي " حتى لتحس وأنت تستمع إلى القصيدة أو تقرؤها أنك أمام بناء فني متكامل قد وضع فيه كل شيء في موضعه في دقة

(١) الديوان ص ٢٩.

(٢) الشعر الجاهلي: قضاياها الفنية والموضوعية د/إبراهيم عبد الرحمن، مكتبة الشباب ص ٢٦٤، سنة ١٩٧٩م

وإحكام على يد فنان ماهر يدرك أسرار الجمال، ويعرف مواطنه فتشعر كأنك أمام لحن موسيقي متناسق النغم ينساب إلى النفس فيأخذ بمجامعها^(١)

ويبعث فيها الحس الوطني ويجعلها تستيقظ من غفوتها وتزيل عنها ركام الكسل والخمول وتبعث فيهم الروح العربية روح الإباء والمحافظة على العرض والأرض، بل إنها تصلح لكل زمان ومكان فهي ليست مقصورة على بني إيباد وحدهم، بل إن ما فيها من دلالات يجعلها نموذجاً لكل الأزمان.

وقد استطاع لقيط أن يوظف الحروف والكلمات ويستخدمها استخداماً جيداً ساعد على إبراز الموسيقى الداخلية، ولا يمكن لهذا الجانب من الموسيقى أن يتضح إلا عن طريق انتقاء الكلمات التي تحقق إيقاعاً، ولا يحدث هذا إلا عن طريق التألف بين الأصوات الذي أحدث نغماً موسيقياً، وقد كان الشاعر الجاهلي يعمد إليه في غالب الأحيان بوسيلتين:

الوسيلة الأولى: الالتزام بالوزن والقافية، وهذا الالتزام يخلق نغماً موسيقياً يسير على وتيرة واحدة في القصيدة من بدايتها إلى نهايتها

الوسيلة الثانية: تكرار حروف بعينها أو كلمات بعينها داخل كل بيت تصدر نغماً موسيقياً يسهم مع الموسيقى النابعة من تكرار القافية في إبراز إحساس الشاعر ومشاركته من قبل القارئ.

ومن أمثلة التكرار لحروف بعينها تكرار حرف الراء في قول الشاعر:

- يا دار عمرة من محلها الجرعا
- هاجت لي الهم والأحزان والوجعا
- بل أيها الراكب المزجي على عجل
- نحو الجزيرة مرتاداً ومنتجعاً
- خزرأ عيونهم كأن لحظهم
- حريق نار ترى منه السنا قطعاً
- لا لحرث يشغلهم بل لا يرون لهم
- من دون بيضتكم رياً ولا شعباً
- مالي أراكم نياماً في بلهنية
- وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا
- انكوا العيون وراء السرح واحترسوا
- حتى ترى الخيل من تعذائها رجعا
- ما انفك يحلب در الدهر أشطره
- يكون مُتَّبِعاً طوراً ومُتَّبِعاً
- فساوروه فالفوه أخا علل
- في الحرب يحتبل الرنبال والسبعا

ومن أمثلة تكرار حرف السين:

- فهم سراع إليكم بين ملتقط
- شوكاً وآخر يجني الصاب والسلعا
- يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً
- على نساكم كسرى وماجعاً
- حتى استمرت على شزر مريرته مستحکم السن لا قمحا ولا ضرعاً
- مستجداً يتحدى الناس كلهم
- لو قارع الناس عن أحسابهم قرعاً
- تكرار حرف الكاف
- ولا تكونوا كمن قد بات مكتنعا
- إذا يقال له: افرج غمة كنعاً
- تكرار حرف الهاء
- أنتم فريقان هذا لا يقوم له
- هصر اللبوث وهذا هالك صقعا

(١) شاعر العروبة والإسلام - أحمد محرم / د/ محمد إبراهيم الجبوشي، دار العروبة، ص ٢٥٩، سنة ١٩٦١م.

ومن أمثلة تكرار الكلمات قوله:

- طورا أراهم وطورا لا أبينهم
- إذا تواضع خدر ساعة لمعا
- أحرار فارس أبناء الملوك لهم
- من الجموع جموع تزدهي القلعا
- في كل يوم يسنون الحراب لكم
- لا يهجعون إذا ما غافل هجعا
- قوموا قياما على أمشاط أرجلكم
- ثم افزعوا قد ينال الأمن من فزعا

تكرار النفي: ويوضح في قوله:

- جرت لما بيننا حبل الشמוש فلا ياساً مبيناً نرى منها ولا طمعا
- لا مترفاً إن رخاء العيش ساعده ولا إذا عض مكروه به خشعا
- حتى استمرت على شزر مريته مستحکم السن لا قحماً ولا ضرعا

وهكذا نلاحظ أن الشاعر كان يوائم بين الموسيقى ودلالات الألفاظ مما ساعده على توفير الجو الموسيقي الذي مهد لتفهم شعره.

وبعد ... فإن شعر لقيط الإيادي يعد نموذجاً مثالياً في استنهاض القبائل للدفاع عن أرضها وعرضها، ويمثل صوت الحكيم المجرب، ويؤكد بما لا يدع مجالا للشك انتماء الشاعر لقبيلته وعروبته.

وقد تجلّى في شعره صدق الشعور، وقوة العاطفة من خلال أفكاره التي حملها رسالته، والتي اشتملت: على بيان قوة العدو، وأسباب ضعف بني إياد، والدعوة إلى توحيد الصف، وحسن اختيار القائد المناسب، ويدل حديثه عن شروط اختيار القائد إلى حكمته وخبرته في الحياة، فهذا الوصف للقائد لا يأتي إلا من حكيم مجرب خبر الحياة، وقد حاول أن يرسم صورة نموذجية لهذا القائد بالألفاظ والأنغام، وأتى في تصويرها على كل جزئياتها، حتى يرسخها في الأذهان، ولكي يلهب حماس بني إياد ذكرهم بتاريخهم التليد الذي سينهار أمام أعينهم إن ظلوا في تخاذلهم، بالإضافة إلى استباحة أرضهم وعرضهم.

وفي كل نلاحظ أن الشاعر كان مدفوعاً بقوة داخلية للتعبير والتصوير، تلك القوة هي صدق إحساسه، وحرارة عاطفته والتي جاءت قوية وملتهبة، وضح ذلك من خلال اعتماده - أيضاً - على أساليب مختلفة، كالنداء والتضاد والمقابلة والأمر والنهي وحسن النسق، وكلها قادرة بتضافرها على إلهاب المشاعر وإثارة النفوس، كما أن استخدامه للألفاظ يدل على مهارته اللغوية بدليل التزامه وحدة الوزن الشعري في الأبيات، وهذا يقتضي اختيار الألفاظ والتراكيب التي تنسجم مع موسيقى الأبيات وتوافق الإيقاع، وكل هذا يدل على ما يتمتع به من ثروة لغوية ساعدته على صياغة صورته المختلفة سواء أكانت كلية أم جزئية، كما أن الموسيقى لعبت دورها في نفس السامع بدليل أنه بمجرد أن يسمع كلام لقيط الإيادي سرعان ما ينفعل به ويسري تأثيره في نفسه مسرى الدم، ولا زلنا نحن الآن حين نسمعه تتحرك عواطفنا بتأثيره مع طول العهد به وبعد الشقة بيننا وبينه، واختلاف الظروف والأحوال، وهذا يدل على صدق شعره وإحساسه.

وإذا كان بنو إياد قد جعلوا كلام لقيط دبر أذانهم، ولم يستجيبوا له فإن النتيجة كانت مؤلمة وقاسية عليهم وانتهت بهزيمتهم وتشردهم.

إن ما نستمدّه من شعر لقيط الإيادي ومن غيره من التراث الأدبي يوقظ فينا الأمل، ويهيج في نفوسنا العزة بما يشتمل عليه من وفرة في القيم الفنية والخلقية، وفيه من خصب المشاعر ما يجعله أصفى تعبير عن نفس العربي .

قائمة المراجع والمصادر

- ١- الإسلام في شعر شوقي، د/ أحمد الحوفي، المجلس الأعلى للشنون الإسلامية، د.ت
- ٢- الأوائل لأبي هلال العسكري، تحقيق: د/ محمد السيد الوكيل، الطبعة الأولى، دار البشير للثقافة والعلوم الإسلامية، القاهرة، سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- ٣- بحوث في تاريخ الأدب الجاهلي، د/ شعبان مرسي - دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٩٩١-١٩٩٢.
- ٤- البلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٤.
- ٥- تاريخ العرب، جواد علي، المجمع العلمي العراقي، بغداد، د.ت.
- ٦- جدلية الأداء التبادلي في الشعر العربي المعاصر، د/ حسن البنداري، مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٩٩م.
- ٧- دائرة المعارف الإسلامية، طبع دار الشعب، القاهرة، د.ت.
- ٨- دراسة في لغة الشعر "رؤية نقدية"، د/ رجا عيّد، منشأة المعارف بالإسكندرية.
- ٩- ديوان الأفوه الأودي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٤٧م.
- ١٠- ديوان أوس بن حجر، تحقيق: محمد يوسف نجم، الطبعة الثالثة، بيروت، سنة ١٩٧٩م.
- ١١- ديوان طرفة بن العبد البكري، تحقيق: د/ علي الجندي، مصر، د.ت.
- ١٢- ديوان عمرو بن قمينة، تحقيق: حسن كامل الصيرفي، طبع معهد المخطوطات العربية، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.
- ١٣- ديوان لقيط بن يعمر الإيادي، رواية: أبي المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي، تحقيق وتقديم وتعليق: خليل إبراهيم العطية، وزارة الإعلام، مديرية الثقافة العامة، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٧٥م.
- ١٤- شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم، محمد إبراهيم الجبوشي، دار العودة، سنة ١٩٦١م.
- ١٥- شعراء وتجارب في العصر الأموي، د/ جودة أمين، دار الثقافة العربية، القاهرة، سنة ١٩٨٩م.
- ١٦- الشعر الجاهلي، د/ محمد زغول سلام، ط كلية الآداب بينها، سنة ١٩٨٧، ١٩٨٨م.
- ١٧- الشعر الجاهلي: قضايا الفنية والموضوعية، د/ إبراهيم عبد الرحمن، مكتبة الشباب، سنة ١٩٧٩م.
- ١٨- الشعر الجاهلي منهج في دراسته ج ٢، د/ محمد النويهي، الدار القومية د.ت.
- ١٩- الشعر الجاهلي وقضية التفسير، د/ السيد فضل، مكتبة الأنجلو المصرية، سنة ١٩٨٩م.
- ٢٠- الشعر العربي قبل الإسلام بين الانتماء القبلي والحس القومي، د/ مصعب حسون، بغداد، سنة ١٩٨٩م.
- ٢١- طوائف الشعراء في العصر الجاهلي، د/ جودة أمين، دار الهادي للطباعة والنشر، ط الأولى، سنة ٢٠٠٦م.
- ٢٢- في تاريخ الأدب الجاهلي، د/ علي الجندي، مكتبة النصر، القاهرة، د.ت.
- ٢٣- قضايا الشعر الجاهلي- مدخل لدراسة آداب الجاهليين، د/ جودة أمين، ط الأولى، سنة ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- ٢٤- قضايا الشعر في النقد العربي القديم، د/ إبراهيم عبد الرحمن، دار العودة، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨١م.
- ٢٥- المؤلف والمختلف، الأمدي، مطبعة القدسي، سنة ١٩٥٤م.
- ٢٦- معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع، للبكري، تحقيق مصطفى السقا، القاهرة سنة ١٩٤٥م.
- ٢٧- نصوص جاهلية، د/ جودة أمين، دار الهادي للطباعة والنشر، ط الأولى سنة ٢٠٠٦م.
- ٢٨- نظرية الشعر في النقد العربي القديم، د/ عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، القاهرة، د.ت.